الفصل الأول

الحداثة واغتراب العقل الإنساني

أ.د. مجدة أحمد محمود(*)

إن القيمة الفعلية لوظيفة العقل الإنساني تتجلى في انطلاقه الدؤوب نحو المعرفة، وتتمثل أدنى مستوياتها في تحقيق الفهم، ثم تتوالى المنظومة المعرفية ليحقق التحليل وإعادة التركيب ثم التفسير لكل ما يدور حوله من مجريات في الواقع.

ولكنني أعتقد أنه يجب أن نتوقف عند تقييم هذه الوظيفة ونحن بإزاء محاولة تحليل مفهوم الحداثة ـ ودوره في تشكيل العقل الإنساني إذ إن هذا الطرح، قد يُعرضنا للعديد من التساؤلات التي تمثل إشكاليات مازال يدور حولها الجدل.

والسؤال الذي يُطرح في هذا الصدد: هل العقل الإنساني وحده هو الملهم لهذا المشروع الحداثي؟ أو أن الحداثة أمر واقعي يجتاح كل الحدود (العقل والمكان والزمان والإمكانية والقدرة الإنسانية)؟

هذا الجدل كان نتاجًا للافتراضات العديدة المطروحة لصورة العقل الراهنة وآليات تشكيله في ضوء مفهوم الحداثة.

فقد أكد البعض أن الحداثة تتبنى العلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيمة كآليات وحيدة للتعامل مع الواقع.

وهيمن نموذج الحداثة المنفصلة عن القيمة على كل مجالات الحياة الهامة وغير الهامة، المركزية والهامشية، وأحكم قبضته على الخريطة الإدراكية للإنسان في الغرب، وكذلك في بلدان العالم الثالث، وصورة الإنسان الكامن في الحداثة المنفصلة عن القيمة هو الفرد صاحب السيادة الكاملة مرجعية ذاته، والهدف من الوجود بالنسبة له تحقيق المنفعة

(*) أستاذ علم النفس.

الشخصية (الذاتية)، وزيادة اللذة، فهو إما إنسان اقتصادي أو جسماني أو خليط منهما، وهو في النهاية مادي لا علاقة له بالخير أو الشر أو بأي قيمة تخرج عن نطاق الحواس الخمس.

ولذلك فقد اقترنت الحداثة بالتجليات الأساسية لانتصار العقل الآدائي وسلطته مما أدى إلى الشطط في استعمال العقل والدعوة إلى التجريد ونفي كل ما من شأنه أن يؤكد الحاجات الجسدية والنوازع الطبيعية.

وهذا الأمر ينسحب على ما ينتجه العقل من معارف، فالعقل الحداثي ينتج معرفة علمية في خدمة التقنية، وبالتالي فهي معرفة كمية غايتها السيطرة على الإنسان وعلى الطبيعة، أو بعبارة أدق إنها سيطرة على الطبيعة من أجل السيطرة على الإنسان.

وارتباط المعرفة بالسيطرة والقوة لا ينعكس على الطبيعة والعلوم الطبيعية فحسب، بل ينعكس على الإنسان والعلوم الإنسانية ذاتها، حين يرتبط هدف المعرفة والتحرير بالسيطرة والتحكم.

وإذا كان هذا هو المعرفة الحداثية فإنها لا تختلف كثيراً عن المعرفة في شكلها البدائي.

فقد كانت المعرفة انعكاساً لتأثير العمل على عقل الإنسان، ونظراً لأن الطبيعة كانت هي المسرح الأساسي للعمل ظهرت المعرفة الطبيعية قبل المعرفة بالمجتمع، وظهرت من ثَمَّ علوم الطبيعة من حاجات الإنتاج، ومن ضرورة إخضاع القوى الطبيعية مباشرة لاحتياجات الإنتاج، بفضل تطوير القوى الإنتاجية، وبدا واضحاً أن حرية الإنسان ليست رهنًا بتحرره من قبضة الطبيعة أو بتحرره من قوانينها، وإنما الحرية هي معرفة هذه القوانين واستخدامها لدفع الضرر عن الإنسان.

لقد سعى الإنسان إلى تغيير وجه الطبيعة عن طريق العمل مستخدمًا يده كأداة أولى ثم مستخدمًا الآلة ثم مستخدمًا العلم، وبذلك انفتحت أمام الإنسان آفاق المعرفة وانفتحت له أيضًا أبواب السطوة ليس فقط على الطبيعة بل وعلى المجتمع أيضًا.

وكانت الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر حتى بداية القرن التاسع عشر مصحوبة بالاضطرابات والتحولات الاجتماعية الضخمة، وقد دفعت لظهور وتطوير

العلوم الاجتماعية، فانحطاط قدر الإنسان في أعقاب انتصار الرأسمالية قد آثار ثائرة المفكرين.

وإذا كانت الثورة الصناعية في أوروبا تمثل مشروعًا حداثيًا آنذاك، فإن هذا الأمر ينسحب على بداية ظهور علم النفس الذي نشأ في خضم الثورة الصناعية كعلم موضوعي يستهدف دراسة الخبرات الشعورية حين أنشأ فونت معمله عام ١٨٧٩م في ليبزج بألمانيا.

والثورة تعني بمصطلحات التاريخ الاجتماعي أنه قد حدثت طفرة هائلة في أدوات الإنتاج، هذه الطفرة استلزمت تغيراً هائلاً كذلك في علاقات الإنتاج مما أوجد (الفجوة) التي تفصل العامل عن نتاج عمله، هذه الفجوة هي المسافة التي شغلتها الآلة فأصبحت الوسيط بين العامل ونتاج عمله، وهنا ظهر مفهوم "الاغتراب" حيث أصبح الإنسان مغتربًا، ومن ثم كان اغتراب الإنسان هو المهمة والمبرر الحقيقي لنشأة علم النفس في ذلك الحين في أوروبا موقع الثورة الصناعية.

وكانت مهمة علم النفس آنذاك فهم الشعور الإنساني فهمًا موضوعيًا انطلاقًا من شعور الإنسان بالاغتراب، ولم يكن بدٌ لإنجاز تلك المهمة من مواجهة مباشرة مع الإنسان، مواجهة تنقب في تاريخ الشعور بالاغتراب على وجه الخصوص، مواجهة تعتمد على دراسة لتطور شعور الإنسان بما هو خارجه، أي شعوره بالطبيعة وبالآخرين، مواجهة تعتمد في النهاية على دراسة تاريخ العمل الإنساني وحاضره باعتباره أن العمل هو الشرط الأول للوجود الإنساني، وباعتباره الخاصية التي ارتقى بفضلها الإنسان على غيره من الكائنات، ولأن هذه الحقبة شهدت نضجًا هائلاً للعلوم الطبيعية بما تشمله من مناهج بحث خاصة بطبيعة موضوعاتها، فحين حاول "فونت" تناول بحث اغتراب الإنسان تأثر بما هو سائد بمناخ العلوم الطبيعية، فاتجه إلى إنشاء معمل تشبهًا بالعلوم الطبيعية، ليس فقط لأنها الأكثر تقدمًا في ذلك الحين، ولكن لأن الثورة الصناعية التي كان جيل فونت ينتمي إليها قامت على منجزات العلوم الطبيعية، كاكتشاف الآلة البخارية، هذا الاكتشاف الذي ينتمي إلى تكنولوجيا العلوم الطبيعية، ولم يكن أمام فونت إلا أن ينحو نحو التشبه بالعلوم الطبيعية، مما أدى إلى مزيد من الاغتراب للعقل الإنساني.

هذا عن البدايات الأولى لحالة اغتراب العقل الإنساني والتي تم رصدها في الماضي القريب، تلك الحالة التي أشار إليها "إريك فروم" والتي تواكب حركة التغير في المجتمع، فالتغير يحتمل أن يؤدي إلى اضطراب في الخصائص الاجتماعية للأفراد فلا يصبح التكوين القديم للطباع والخصائص مناسبًا للمجتمع الجديد مما يزيد شعور الإنسان بالاغتراب واليأس، فقد فصل عن الروابط القديمة ولذلك فهو يحس بالضياع إلى أن يستطيع تكوين جذور وروابط جديدة.

أيضًا استشرف "الفين توفلر" مستقبل حالة الاغتراب حين أشار إلى الأسس التي يجب أن تتبعها المجتمعات الآخذة في التصنيع ـ وخاصة في ضوء تعاظم قوى التكنولوجيا واتساع مجالها فعلى المجتمع أيضًا أن يضاعف اختياراته.

فالتكنولوجيا المتقدمة تساعد على فائض الاختيار في السلع المتاحة وفي المنتجات الثقافية والخدمات وأساليب الحياة، وفي نفس الوقت أصبح فائض الاختيار سمة لاصقة بالتكنولوجيا نفسها، فالمستحدثات في التكنولوجيا في تزايد وتنوع مستمرين ومشكلات الانتقاء تتفاقم أمام المجتمع.

فالمجتمع بحاجة أكثر تعقيداً للاختيار بين التكنولوجيات وأيضًا على المجتمع وهو يواجه لأول مرة بفائض الاختيار التكنولوجي أن ينتقي ماكيناته وعملياته وتكتيكاته.

فكما يستطيع الفرد أن يمارس الاختيار الواعي بين بدائل متعددة لأساليب الحياة، كذلك يستطيع المجتمع أن يمارس الاختيار الواعي بين بدائل عديدة من الأساليب الثقافية.

ولعل الاختيار الذي التقى عنده الفرد والمجتمع في خضم هذه التغيرات التكنولوجية المتلاحقة هو الاختيار الذي يؤكد حالة انبهار الإنسان بالآلة، رغم مخاوفه منها كقوة جبارة تطيح بالقيم الإنسانية وتخفي وراءها المشاعر والتعاطف. إلا أن صورتها كانت تداعب خياله صورة متمثلة في القوة التي تفوق قوة البشر بكثير.

وسرعان ما تحول الحلم إلى حقيقة في استحداث الآلة، وظهر العقل الإلكتروني الذي يتمتع بالدقة والسرعة، فضلاً عما يمكن أن تستوعبه الذاكرة الإلكترونية من معلومات ومعارف تتضاعف سرعتها على الدوام بدرجة يعجز عن استيعابها أي عقل بشري.

إذن ما موقف العقل البشري من هذا المارد الذي قام مقام الإنسان وأدى وظائفه العضلية والذهنية؟ هل استطاع العقل أن يعلو ويسود ويتفوق على ما أنتجه كعادته، وهل تفرغ لشكل آخر من الأداء، ودرجة أعلى من الإبداع أو راح يستهلك نتاج عمله منغمراً في حالة من الاغتراب؟

أما عن حالة اغتراب العقل الإنساني الحالية، والتي تمثل أحد دواعي دهشتنا ونحن في بدايات الألفية الثالثة، فمن ذلك أن تطالعنا الصحف اليومية بمادة صحفية ضخمة تضم جنبًا إلى جنب مقالات تناقش قضية العولمة بأبعادها على الساحتين العربية والعالمية، وتؤكد أن آليات التطور في العصر الحديث كالكمبيوتر والمعلوماتية قد أدت إلى انهيار حدود الزمان والمكان بين أفراد البشر، معلنة عن أنماط من الفكر العقلي ترفع الإنسان إلى أعلى آفاق التطور، ونرى على نفس الصفحات تحقيقات صحفية تعلن انحطاط تفكير الإنسان وسلوكياته إلى مستويات متدنية من خلال الإعلان عن ظهور من يدعي مثلاً أنه يستطيع أن يشفي المرضى ويخفف آلامهم بالدجل والشعوذة، أو من يدعي براعته في كشف الطالع، وتحقيق المراد لمن أراد، والأخطر من هذا أن هؤلاء الأفراد يلتف حولهم عدد كبير من المريدين ينساقون وراء المزيد من حالة الاستلاب العقلي.

أليس هذا شكلاً آخر من أشكال اغتراب العقل الإنساني؟

قد يعتبر العجز سببًا أساسيًا في ظهور هذا الشكل من الاغتراب، وهذا الشعور بالعجز وانعدام الحيلة يحدث حينما لا يكون لأفعال الفرد أي آثار إيجابية على النتائج، وقد حدده سيلجمان (١٩٧٥م) بوضوح في نظريته عما يسميه العجز المتعلم. والنقطة الأساسية في العجز المتعلم هي أن الفرد حين تفشل جهوده في السيطرة على حدث ما بشكل متكرر فإنه لا يتوقف عن النضال بسبب تلك النتيجة، ولكنه قد يفشل أيضًا في السيطرة على بعض المواقف الجديدة التي تكون السيطرة فيها مطلوبة بمعنى أن الفرد يتعلم العجز من خبرات الفشل المتكررة.

وهذا الشعور بالعجز يتخذ أشكالاً تختلف باختلاف البيئة والعصر، ولكن نتيجته دائمًا واحدة، وهي أن يلجأ الإنسان في تعليلاته للأحداث إلى قوى لا عقلية تساعده على

التخلص من المشكلات التي يواجهها تخلصًا وهميًا بدلاً من أن تساعده على حلها أو حتى مواجهتها بطرق واقعية.

ومن الممكن القول على سبيل المقارنة إن شعور الإنسان بالعجز كان يتخذ في العصور القديمة شكل العجز عن الفهم والقصور في معرفة العالم المحيط به. لذا كان يعلل الظواهر التي لا يفهمها تعليلات خرافية.

أما في العصر الحديث بعد أن توصل الإنسان إلى معرفة تتيح له إجابات علمية عن الأسئلة الأساسية التي كان يعجز من قبل عن فهمها فإن المسألة لم تعد تتعلق بالعجز عن الفهم أو المعرفة، بل أصبح العجز يتمثل في عدم القدرة على التحكم الواعي في مسار المجتمع وفي القوى التي تسيطر عليه، أي أنه أصبح عاجزًا اجتماعيًا، وهذا ما يعلل استمرار ظهور الفكر الخرافي في مجتمعات المعلوماتية، فلا يمكن القول بأن الجهل يخيم عليها أو أن الفقر يطمس عقول الناس فيها، والتعليل المعقول لذلك هو أن الناس برغم ما توافر لهم من معرفة وعلم وما يتمتعون به من مستوى عال للمعيشة يعجزون عن فهم القوى التي تتحكم في مسار حياتهم وينظرون إلى المستقبل نظرة قاتمة ويتصورون أن العالم تشيع فيه قوى شريرة وخيمة كئيبة تفرض على الناس أن يعيشوا في توتر وخوف دائم من المصير المجهول وهي قوى لا يمكن محاربتها إلا بقوى أخرى من نفس نوعها.

وفي حالة بعض المجتمعات يتخذ التفكير الخرافي شكل العداء الأصيل للعلم والعقل، ويمثل هذا العداء امتدادًا واستمرارًا لتاريخ طويل كان العلم يحاربه.

فانتشار الخرافة يمثل في هذه الحالة تعبيرًا عن جمود المجتمع وتوقفه عند أوضاع قديمة ومقاومته للتطور السريع المحيط به من كل جانب. ولذلك يرى "مصطفى حجازي" أن العيش في الحاضر وانسداد آفاق المستقبل هي إحدى الخصائص النفسية للوجود المتخلف، إنها نتيجة انعدام الضمانات الحياتية، فالإنسان الذي فقد السيطرة على مصيره يستحيل عليه التخطيط لهذا المصير، ويظل بالتالي أسير الظروف يعيش يومه غير مدرك لما يمكن أن يحمله الغد، وحينما يعجز الإنسان المتخلف عن حل مشاكله يلجأ إلى الحلول الخرافية.

ومن العوامل التي تسهم في تشكيل العقل على هذا النحو:

١- السلطة:

وتعتبر السلطة بجميع صورها أحد مصادر تشكيل العقل، إذ هي المصدر الذي لا يناقش، والذي يخضع له الفرد إيمانًا منه بأن من يقوم عليها يملك الرأي القاطع، ومعرفته تسمو فوق كل المعارف.

ولذلك يرى البعض أن الخضوع للسلطة أسلوب مريح في حل المشكلات ولكن أسلوب ينم عن العجز والافتقار إلى الروح الخلاقة.

ومن هنا فإن العصور التي كانت السلطة فيها هي المرجع الأخير في شئون العلم والفكر، كانت عصورًا متخلفة خلت من كل إبداع، فالسلطة وما يرتبط بها من عوامل قمع الفكر تساهم في وجود الخرافة وانتشارها.

وقد تلجأ السلطة بشكل مباشر أو غير مباشر إلى إجراءات تساهم في تعميق حالة العجز وانعدام الحيلة لدى الناس مما يؤدي إلى انغماسهم في ممارسات خرافية.

٢- وسائل الإعلام:

يعتبر الإعلام من أهم الوسائل التي يمكن أن تغزو العقل الإنساني في عصر المعلوماتية وتعمل على تزييفه ونشر أساليب معينة تخدم هدف من يتلاعبون بعقول الناس مثل أسطورة الفردية والاختيار الشخصي وأسطورة الحياد الإعلامي وأسطورة الطبيعة الإنسانية الثابتة وأسطورة غياب الصراع الاجتماعي.

وتتخذ عملية التزييف في الوقت الحالي الأسلوب التجاري الذي يهدف إلى ترويج السلع بين الناس حتى لو لم يكونوا في حاجة ماسة إليها وحتى لو كانت احتياجاتهم الحقيقية تتعلق بأشياء أخرى.

وهكذا يفقد الأفراد قدرتهم على التمييز بين ما هو ضروري وما هو غير ضروري مما يؤثر في ملكات التفكير عند الإنسان، وبذلك نستخلص أن القدرة على التفكير في الأمور

سواء كانت تتعلق بالعلم أو بحياة الإنسان ومجتمعه تفكيراً سليماً مهددة تهديداً خطيراً بتلك العقبات التي لا تزال تمارس تأثيرها الضار على عقل الإنسان.

٣- السياسات التعليمية:

لا شك أن التعليم يلعب دوراً أساسيًا فيما يتحقق للفرد من وعي ومعرفة، وأنه أيسر السبل لفض أية مجهلة قد تعوق العقل الإنساني عن فهم وتنظيم ظواهر عالمه، ومع ذلك فقد تبدو هذه النتيجة مسايرة لبعض التوقعات السائدة إزاء قيمة التعليم في مجتمعنا ومغايرة للبعض الآخر.

فالاتجاه العام يؤكد أن مدى تفشي الأمية مسئول بالدرجة الأولى عن استمرار العقلية غير العلمية، وأن تطور العقل يسير بشكل عام مع ارتقاء المستوى التعليمي في المجتمع، وفي مقابل هذه الرؤية توجد رؤية مغايرة تؤكد القيمة السلبية لعامل التعليم في مجتمعنا وأن التعليم لم يحقق الفاعلية المنشودة في تغيير فكر الإنسان وتوجهاته نحو الأحداث وأنه لا يمثل صمام الأمان الكافي الذي يحمي الفرد من الوقوع في ممارسات غير علمية.

٤- التشويهات المعرفية:

وهي عمليات ترتبط بالافتقار إلى المنطق وتتسم بالتعميم الزائد، وتنجم تلك التشويهات عن تأثيرات المناخ الذي يجعل أسلوب صياغة المقدمات المنطقية في أي قضية يؤثر على الاستنتاج الذي يصل إليه الفرد، ويشير تأثير المعنى إلى قبول الفرد استنتاجات قائمة على ما يتسق مع معتقداته. ويعتبر التحيز والتعصب من السمات المميزة لهذا المناخ.

كانت هذه أهم العوامل التي تؤدي إلى اغتراب العقل الإنساني – أو حالة الاستلاب التي أصبحت أشبه بالتنويم المغناطيسي، فالفرد يكون تحت شروط التنويم سلبيًا أكثر من إيجابيًا، فهو يقبل بشكل سلبي إيحاءات من حوله. كما أنه يمارس انتقائية الانتباه ـ فتحت هذه الحالة يركز انتباه غالبًا على شيء واحد، مما يتضمن تشويه الإدراك وخفض الحساسية وتغير الوعي أو إلغاؤه ـ وأخيراً تغير الهوية.

والسؤال الذي يطرح نفسه مرة ثانية : ماذا بعد هذا الرصد والتشخيص لحالة الاغتراب العقلي؟ هل نقف ونسلم لها كأمر واقع أو ما زلنا نملك التأثير والقدرة على التغيير؟

أنا أتصور أنه مازال لدينا القدرة على التأثير إذا :

نجحنا في :

١ـ توجيه العقل الوجهة الإيجابية في التفكير .
٢ـ توظيف كل أنواع الطاقة العقلية .
٣ـ تحرير العقل من الأوهام (فليس هناك تركيبة سحرية لحل المشكلات) .
٤ـ الانفتاح على الثقافات الأخرى والحداثة .

تجنبنا :

١ـ الأخذ بظواهر الأمور .
٢ـ التعجل في إصدار الأحكام .
٣ـ الخوف من الفشل والإعلان عن المشكلات .
٤ـ التثبيت الوظيفي للعقل والنظرة الأحادية .
٥ـ ادعاء المعرفة المطلقة والأحكام النهائية .
٦ـ الانغلاق على الماضي .

obeikandl.com